مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد 05 العدد 03 جوان 2022 ص ص: 317-345
ر س ع و (ISSN): 2602-618X / ر س ع و إ (E-ISSN): 2710-8031

أضواء على العلاقات بين السودان وبلاد المغرب الاسلامي حتى فترة الموحدين العلاقات التجارية نموذجا

Spotlight on trade relations between Sudan and the Islamic Maghreb until the Almohad period business relations model

غربي بغداد[1]*، ط.د. بن ميرة بن سعيد[2]

[1]baghdadgharbi@yahoo.fr جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

[2]benmira2008@gmail.com جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

تاريخ الإرسال: 2022/02/24 تاريخ القبول: 2022/05/30 تاريخ النشر: 2022/06/15

الملخص باللغة العربية: لم يمكّن لدولة أن أخضعت أقطار المغرب الإسلامي لسلطانها مثل ما مكون لدولة الموحدين حيث أصبحت توصف عن جدارة بالإمبراطورية الموحدية لامتلاكها كل مجالات المغرب مضافة إلى إقليم الأندلس الأمر الذي هيأ لها مكانة دولية مهمة فرضتها حدودها الجغرافية الواسعة ومتاخمتها لعديد من الكيانات السياسية. ومنها ممالك السودان.

لقد ارتبطت بلاد المغرب خلال فتراتها التاريخية المختلفة بصلات تجارية واسعة مع بلاد السودان، وذلك ما تدلل عليه الشواهد التاريخية المختلفة، وفي الفترة الإسلامية ازدادت هذه الروابط التجارية نشاطا وكثافة؛ بل تعدتها إلى جوانب ثقافية وفكرية تركزت في أساسها على نشر الإسلام في هذه المنطقة وتتضح جليا هذه الروابط منذ حكم المرابطين للشق الغربي من الشمال الإفريقي.

إن علاقات بلاد المغرب الإسلامي مع بلاد السودان تتميز بخصائص تميزها عن العلاقات مع باقي الكيانات السياسية المعاصرة للخلافة الموحدية، حيث ارتبطت هذه العلاقات أساسا على الجانب التجاري ذو الطابع الفردي؛ نظرا لما تدره تجارة الذهب مع هذه الأقاليم من أرباح وفيرة، ونظرا لطبيعة المجال والإقليم من الناحية الطبيعية الذي يجعل الخوض في غمار هذه التجارة عزيزا ومكاسبه كبيرة.

* المؤلف المرسل

يهدف المقال الى بيان طبيعة العلاقات بين المغرب الاسلامي عامة وفترة الموحدين خاصة مع ممالك السودان وانواعها مع التركيز على الجوانب الاقتصادية الممثلة اساسا في النشاط التجاري وبيان اليات المبادلات التجارية وانواعها ودورها في تعزيز العلاقات بين الطرفين واثرها على الاقتصاد الموحدي

الكلمات المفتاحية: الموحدين، بلاد السودان، العلاقات، التجارة الخارجية، المغرب الاسلامي

Abstract : It was not possible for a state to submit the countries of the Islamic Maghreb to its authority, as it is made up of the Almohad, where it has becom ewell described as the Almohad Empire for having all areas of Morocco added to the region of Andalusia, which has established an important international position imposed by its vast geographical borders and its proximity to many political entities, including the kingdoms of Sudan.

During its various historical periods, The Maghreb had extensive trade ties with the countries of Sudan, as proved by various historical evidence. In the Islamic period, these trade ties have become more active and intense ;they have even been extended to cultural and intellectual aspects that have focused primarily on the spread of Islam in this region, and these links have been evident since the Almoravids ruled the western part of north Africa.

The Relations of the Islamic Maghreb with the Sudan are characterized by features that distinguish them from those with other contemporary political entities of the Almohad caliphate, which have been mainly linked on the commercial side of an individual nature, given the abundant profits generated by the gold trade with these regions, and the nature of the area and territory that makes it dear and its profits are great.

The article aims to show the nature relations between the Almohads and the kingdoms of Sudan and their types, focusing on the economic aspects represented mainly in business activity and indicating the mechanisms and types of trade and their role

in strengthening relations between the two parties and their impact on the Unified economy.

Key words : Almohads, Sudan, Relations, Foreign Trade, Islamic Maghreb

مقدمة:

إن طبيعة المادة التاريخية التي تتناول موضوع العلاقات التجارية الموحدية مع بلاد السودان عزيزة ومقتضبة إذا ما قورنت بنظيرتها التي تتناول هذا الموضوع مع دول الشمال الأمر الذي يطرح إشكالية مصدرية تحول دون بغية البحث الرامية إلى تفصيل المعطيات حول الموضوع، إلا انه من خلال التتبع والاستقراء نجد هذه العلاقات بالنسبة لفترة الموحدين ما هي إلاّ استمرار لمنظومة تجارية بين دول المغرب الإسلامي وممالك السودان وخاصة الغربي منه والتي تتميز في مجملها بالنشاط والحيوية رغم المخاطر المتعلقة بها، وذلك للمحفزات الكبيرة التي ذكرنا.

وبالتالي يمكن إعطاء صورة عن حقيقة هذه العلاقات من خلال التعرف على طبيعة الصلات التجارية بين الطرفين قبيل الفترة المدروسة، ولا يتم ذلك إلا بعد إعطاء تصور عام -ولو بصفة مختصرة-عن مصطلح بلاد السودان، وكذا إطاره الجغرافي والتاريخي ، وطبيعة العلاقات بين هذا الاقليم والكيانات السياسية المتعاقبة على بلاد المغرب الاسلامي قبيل هذه الفترة من اجل اعاء صورة شمولية على هذه الفترة

1- المجال الجغرافي والتاريخي لبلاد السودان:

بلاد السودان مصطلح أطلقه الجغرافيون العرب علي المنطقة التي تقع جنوب الصحراء الكبرى والممتدة بين المحيط الأطلسي غربا وبحيرة تشاد شرقا والتي ضمت عددا من الوحدات السياسية؛ مثل جاو، وتكرور، وغانة، ومالي، وهي تشمل منطقة واسعة في الناحية الغربية من القارة الإفريقية، ما بين الصحراء في الشمال إلى غاية المناطق الغابية الاستوائية في الناحية الجنوبية، أما من الناحية الشرقية فتمتد إلى مرتفعات الحبشة وصولا في الناحية الغربية إلى المحيط الأطلسي، وربما يعود إطلاق العرب لهذه

التسمية على هذه الأقاليم نسبة إلى لون بشرة سكانها التي تتميز بالسمرة إلى السواد الداكن[1].

وينقسم إقليم السودان حسب اصطلاح الجغرافيين إلى ثلاثة أقسام: **السودان الغربي**، ويشمل حوض نهر السنغال ونهر النيجر في حوضه الأوسط والمجرى الأعلى لنهر الفولتا. أما القسم الثاني وهو **السودان الأوسط:** فيشمل حوض بحيرة تشاد. أما **السودان الشرقي**: فيشمل الحوض الأعلى لنهر النيل جنوب بلاد النوبة وهو الذي اصطلح عليه العرب ببلاد الزنج[2].

إن الناظر إلى المجال الطبيعي لشعوب السودان وشعوب شمال القارة الإفريقية وما يحول بينهما من حواجز طبيعية قاسية كالصحراء الكبرى؛ يجزم بالقطيعة الحضارية بين المنطقتين، ولكن الواقع التاريخي والحضاري بين المنطقتين هو على العكس من ذلك، فقد كانت هناك صالات حضارية مستمرة بين الشمال والجنوب، وتعود إلى أزمنة تاريخية ضاربة في القدم.

فلقد كانت قوافل تجار قرطاجة تقوم برحلات تجارية إلى هذه البلاد، وقد ظل هذا التبادل قائماً في العهدين اليوناني والروماني ثم البيزنطي؛ بل إن وجود هذه الاتصالات يعود إلى فترة الألف التاسعة قبل الميلاد[3]، وهو ما تدل عليه النقوش الصخرية التي تظهر بها عربات تجرها الخيول، وتتبع هذه النقوش طريقا يبدأ من وادي درعه، مرورا بأدرار في موريتانيا الحالية، لينتهي في الدلتا الداخلية لنهر النيجر، بالإضافة إلى ممر آخر تشير إليه النقوش الصخرية يربط بين جنوب تونس وجبال الهوقار، ونهر النيجر، فرغم كل هذا

1- محمود شاكر، مواطن الشعوب الإسلامية في إفريقيا (السودان)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1401هـ/1981م، ص: 9.

2- زبادية عبد القادر، مملكة سنغاي في عهد الاسقيين، الجزائر، 1971م، ص: 15.

3- في الوقت الذي كانت تسود فيه عصور جليدية في أوربا في الألف الخامسة قبل الميلاد كانت منطقة الصحراء الإفريقية يسودها جو مطير أطال عمر العصر الحجري الحديث الذي مثل الإنسان الإفريقي فيه مجتمعات من الصيادين والرعاة والفرسان الذين عمروا هذه المنطقة، حيث ذهب علماء الجيولوجيا إلى نظريتين أساسيتين حول الوجود الحضاري لإنسان الصحراء؛ نظرية الباحث جلود Joleaud سنة 1933م، مفادها أن معظم الرسوم الصخرية تعود إلى الألف التاسعة ق.م، أما الرأي الثاني فهو للباحث فوفري Vaufrey، الذي يعدل التاريخ السابق فينزل به إلى الألف الخامس ق.م. محمد الصغير غانم، المحتوى التاريخي للرسوم الصخرية، مجلة الأصالة (عدد خاص بتاريخ منطقة الهوقار)، الجزائر، العدد 72، 1399هـ/1979م، ص: 73.

الفاصل الرملي العريض بين شعوب الشمال والشعوب الإفريقية التي تعيش في الجنوب؛ إلا أن الصلات لم تنقطع أبدا بين الإفريقيتين ككل طوال فترات التاريخ[4].

ولقد أخذت الصلات بين المغرب وبلاد السودان تتوطد بعد الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا، حيث نشطت هذه الصلات التي كانت تجارية في أولها ثم أصبح لها انعكاسات على مختلف النواحي الحضارية من الفكر الدين والثقافة، حتى أصبحت هذه المناطق من السودان الغربي مراكز تجارية مهمة، كما أضحت بعد ذلك مراكز ثقافية تشع العلم والمعرفة، وكانت من أهم هذه المراكز غانة واودغست وجنى وتمبكت [5].

لقد تعاقبت مجموعة من الممالك على حكم بلاد السودان في أقسامه المختلفة، وسنعرض بالحديث للممالك التي كان لها دور مهم في الصلات التجارية مع بلاد المغرب الإسلامي والمتمثلة في:

1-1 مملكة غانة (أرض الذهب):

ظهرت غانة في المناطق الغربية للقارة الإفريقية، في حدود القرن الثالث للميلاد، في مدينة كومبي في إقليم واكادو أو غانا، حيث أطلق كلقب للدولة ، بينما أطلق العرب هذه التسمية على عاصمة الدولة كومبي، وقد توسعت هذه المملكة وكونت إمبراطورية مثلت في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد اكبر قوة حربية في إفريقيا في هذه الفترة[6].

لقد امتدت هذه المملكة على حساب مجموعة من الكيانات السياسية صغيرة في هذه الفترة كمملكة التكرور الواقعة جنوب نهر السنغال ومملكة صوصو على نهر النيجر، وترجع القوة الاقتصادية لهذه المملكة إلى سبب جوهري وهو السيطرة على الطريق التجاري الهام المسمى " طريق الملح والذهب" وكان هذا الطريق من الأهمية لدرجة انه كان له ملك خاص يحكمه يطلق عليه اسم " كايا ماغان" ومعناه " ملك الذهب"، حيث كان يعمل على ضبط المبادلات التجارية على هذا الطريق، واخذ الضرائب على القوافل

4- خوان جوزيف، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، تر: مختار السويفي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1404هـ/1984م، ص: 30.

5- عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/1988م، ص: 41.

6- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى الفرناطي، كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1982م، ص: 92. خوان جوزيف، المرجع السابق، ص: 51.

الصادرة والواردة إلى هذه البلاد[7]. وهناك سبب آخر يرجع إليه تقدم هذه المملكة على غيرها من الممالك وهو استخدام قبائل السونيك لمعدن الحديد واتخاذ الأسلحة منه قبل غيرها من الممالك الإفريقية الأخرى التي كانت تصنع الأسلحة من فروع خشب الأبنوس الأسود الثقيل[8].

كان لا بد لقبائل الوانجارا أن تستورد هذه السلعة الحيوية من خارج منطقتها خاصة وان الملح يعتبر رحيق الحياة للإنسان الذي يعيش في منطقة السافانا ذات الشمس الحارقة التي تشع حرارة شديدة يخرج على إثرها الخزين الملحي الذي يتحصن به جسم الإنسان فيتعرض للعلل والأمراض التي تهلكه، فاضطر سكان غانة إلى استيراد هذه المادة الأساسية من مدينة تغزة[9] الواقعة في عمق الصحراء في شمال غرب إفريقيا حيث توجد فيها مناجم هائلة للملح الصخري الطبيعي ويعمل فيها ألاف عديدة من العبيد[10].

كما حققت مملكة غانة ثراء فاحشا من خلال تحكمها في إنتاج الذهب والتجارة فيه، فقد ذكر الجغرافيون أن ملك غانة كان يجلس في ديوان تحفه الخيول المكسوة بالحلل المذهبة، ولخدمه سيوف ودروع مقابضها من الذهب، كما تحرس مدخل حجرة الملك كلاب على أعناقها قلائد ذهبية، كما كان للملك في قصره لبنة من ذهب وزنها ثلاثون رطلا تبرة واحدة خلقها الله تامة من غير أن تسبك في نار أو تطرق بآلة، وقد نقر فيها ثقوب، وهي مربط لفرس الملك، وهي من الأشياء المغربة التي ليست عند غيره وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان[11]. كما اعتنى هؤلاء الملوك بثمن الذهب الحرص عليه من خلال سياسة التحكم في كميات الذهب المعروضة في الأسواق كي لا تسبب تدنيا في ثمنه، حيث يصف البكري هذه السياسة الاقتصادية بقوله: " إذ وجد في جميع معادن

7- كان ملك غانة يأخذ على حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد ودينارن في إخراجه، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل. البكري، المغرب، ص: 176.

8- خوان جوزيف، المرجع السابق، ص: 51.

9- الوزان، الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ج2، ص : 108.

10- خوان جوزيف، المرجع السابق، ص: 52.

11- الإدريسي، ، محمد بن عبد الله السبتي الشريف نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/2002م، ص: 23. البكري، المغرب، ص: 176. ابن سعيد، الجغرافيا، ص: 92.

بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك وإنما يترك منها للناس هذا التبر الدقيق ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون، والندرة تكون من أوقية إلى رطل"[12].

ومن خلال ذلك شكلت هذه المنطقة أهم الأسواق الضخمة التي يتم تبادل البضائع فيها بالجملة، حيث لم تقتصر عملية المبادلات على مادتي الذهب والملح، بل شملت جميع أنواع البضائع التي كانت شائعة آنذاك كالمواشي والقمح والفواكه المجففة كالعنب والعاج واللؤلؤ، ويعود ذلك إلى ازدهار الأنشطة الصناعية المتعلقة بالأواني الخزفية والصناعات الحديدية كالأسلحة والأواني المختلفة، بالإضافة إلى تصنيع النحاس إلى أواني وتحف وحلي، ومصانع صياغة الذهب وترصيعه بالأحجار الكريمة، بالإضافة إلى انتشار مصانع النسيج ومدابغ الجلود[13].

فإمبراطورية غانة قامت وتوسعت خلال ستة قرون، وكانت ظاهرة سياسية وحضارية مركزية فريدة في افريقيا الغربية جنوب الصحراء، حيث اعتمدت على العنصرين الأبيض والأسود، وأخذت بالوسائل المادية التي ددفعت بها نحو التطور والقوة، ومن بين تلك الوسائل تحويل الحديد، وفرض الضرائب على تجارة الذهب والملح والمواشي، بالإضافة إلى الاعتناء باستخراج الذهب وتسويقه.

ورغم هذا؛ فان ظهور القوة المرابطية في المنطقة أدى إلى تغيير في الخارطة السياسية لها، حيث تقلصت قوة غانة بعد التلاشي المستمر أمام ضربات المرابطين خلال القرن الحادي عشر، وخضوع كل من قبائل التكرور والصوصو ودخولها الإسلام وإخلاصها لأمراء المرابطين من خلال الإغارة على ملوك غانة المنسحبين تجاه الجنوب، كما تحولت مدينة اودغشت إلى مركز للسلطة والقوة والتجارة المأمونة، وأخيرا اعتناق أمراء غانة الإسلام وانضواؤهم تحت السلطة المرابطية، فأصبحوا بذلك دعاة مجاهدين للقبائل الوثنية تحت راية العباسيين[14].

1-2 مملكة مالي: معناها باللغة الماندية (حيث يعيش الملك) ، كان دينها الرسمي الإسلام الذي وصل إلى هذه المنطقة بفضل جهود المرابطين في نشر الإسلام في

12- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، طبعة حجرية، الجزائر، 1857، ص: 177، مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد، دار النشر المغربية، 1986م، ص: 221.

13- خوان جوزيف، المرجع السابق، ص: 58.

14- محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، نشأته وآثاره، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، دت، ص: 40.

هذه المناطق[15]، تمتد هذه المملكة على طول احد فروع نهر النيجر في مسافة نحو ثلاثمائة ميل من مملكة جيني (غينيا) من جهة الشمال، والقفر مع جبال وعرة من جهة الجنوب، وتحدها غربا غابات مهجورة تمتد إلى المحيط، وشرقا إقليم كاغو[16].

سيطرت مملكة مالي التي أسستها قبائل الماندينك سنة 1213م على بطاح شاسعة في غرب إفريقيا، وفرضت حكمها على مساحة اكبر من مساحة مملكة غانة، فقد استطاعت قبائل الماندينك التي كانت في بداية الأمر تدين لمملكة غانة الوثنية أن تستولي عليها بفضل دخول هذه القبائل تحت ولاء المرابطين الذين اوهنوا قوة هذه المملكة، كما كانت قبائل سوسو عاملا مساعدا على ذلك بعد دخولهم العاصمة واحتلالها، فقامت قبائل الماندينك ضد سوسو انتصرت عليها سنة 1235م بقيادة سوند ياتاكيتا، ودخلت إلى مدينة كومبي عاصمة غانة سنة 1240[17].

وبعد ذلك ازداد اتساع مملكة مالي نحو مصادر الملح في الشمال عند مدينة تغازة، وامتدت من الناحية الجنوبية إلى أطراف السافانا حيث مصادر الذهب، وامتدت إلى المحيط الأطلسي من الناحية الغربية، أما شرقا فقد امتدت إلى تكدا حيث مناجم النحاس، كما استولت على مدينة كاو عاصمة سنغاي، فأصبحت بهذا الاتساع تقدر من الشرق إلى الغرب بمسافة مسيرة أربعة أشهر، أما من الشمال إلى الجنوب فقدرت بمسافة ثلاثة اشهر[18]. وهذا ما جعل ابن خلدون يجعل إمبراطورية مالي تشتمل على خمسة أقاليم، كل إقليم منها مملكة بذاتها، وهذه الأقاليم هي: مالي؛ وتقع بين إقليم سوسو من غربيه وإقليم كوكو من الناحية الشرقية، وإقليم سوسو الواقع غرب مالي، وبلاد غانة، وبلاد كوكو؛ وصاحبه كافر يوجد بجانبه الغربي مسلمو غانة، أما شرقا فيوجد مسلموا

15- عصمت دندش، دور المرابطين، ص: 112.

16- الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص: 164. مارمول كربخال، إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1404هـ/1984م، ج3، ص: 200، 201.

17- فيج جي دي، تاريخ غرب افريقيا، تر: السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1982م، ص: 52. خوان جوزيف، المرجع السابق، ص: 67. وهذا لا يعني أن مملكة مالي لم تكن قبل هذا التاريخ، فلا شك أنها كانت موجودة قبل هذا التاريخ بكثير الا ان نطاق توسعها كان محدودا وكذا سمعتها السياسية. فقيامها كان مواكبا لصدر الدولة المرابطية ، حيث إن تنصيب أول أمير مندينغ مسلم كان حوالي سنة 1050م من طرف عم السلطان يوسف بن تاشفين. الوزان، وصف إفريقيا، ص 164.

18- السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر، تاريخ السودان، مطبعة باريس، 1981م، ص: 9، 10.

الكاغ، أما الإقليم الخامس فهو بلاد التكرور، وقاعدته مدينة التكرور الواقعة على النيل وبينها وبين سجلماسة نحو أربعين يوما بسير القوافل[19].

استطاعت مملكة مالي ان تحقق ازدهارا اقتصاديا كبيرا وذلك بسبب سيطرتها على موارد الاقتصاد الأساسية في هذه الفترة ألا وهي الذهب والملح، فإذا كان من نصيب مملكة غانة احتكار الذهب دون الملح فان مملكة مالي استطاعت أن تمد نفوذها شمالا إلى مورد الملح بمدينة تغازي، كما وصلت إلى مواطن الذهب جنوبا في أطراف السافانا، ويضاف إلى هذا انتشار الأنشطة الاقتصادية الأخرى كالصناعة والزراعة، حيث كانت تنتج القطن الذي أصبح دعامة أساسية في اقتصاديات الإمبراطورية[20].

غير ان هذه الإمبراطورية منذ القرن الخامس عشر سرى الضعف في أوصالها بسبب الصراعات على السلطة، والانغماس في الملذات، فنتج عن تفككها مملكتي تكرور وسنغاي[21].

1-3 مملكة سنغاي:

قامت مملكة سنغاي أو صونغاي في منطقة وسط نهر النيجر بغرب إفريقيا في القرن السابع للميلاد[22] من قبل قبائل سنغاي الواقعة على وادي النيجر بين بوريم وساي، وقد اتخذ سكانها مدينة كوكيا الواقعة على نهر النيجر الأدنى عاصمة لهم ثم نقلت هذه العاصمة الى مدينة جاو، وقد اعتنق سكان هذه المملكة الإسلام في وقت مبكر يعود إلى استسلام أول رجل منهم يسمى ضياء كوسوى سنة 1009م[23].

19- ماجدة كريمي، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، إشراف: إبراهيم حركات، 1987/1988، ص: 115.

20- عثمان برايما باري، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص: 39. خوان جوزيف، المرجع السابق، ص: 67.

21- يخبرنا ابن بطوطة عن انتشار العادات الغريبة في المجتمع المالي فيقول:" والنساء هناك لهم أصدقاء وأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات، ويدخل احدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك" ابن بطوطة، الرحلة ، ج2، ص: 234.

22- محمد علي الهمشري واخرون، انتشار الاسلام افريقيا، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418هـ/1997م، ص: 64.

23- يرجع البعض دخول الإسلام إلى المملكة قبل الفترة المرابطية، كما تم العثور سنة 1939م في بلدة (ساني) على بعد حوالي 4 أميال من مدينة جاو على قبور ملوك يعود تاريخهم إلى نهاية القرن الحادي عشر وكتب على احد هذه القبور: هنا يرقد جثمان الملك أبي عبد الله بن محمد الذي دافع عن دين الله وهو الآن في رعاية الله ورحمته. وكان ذلك سنة 494هـ/1100م. عثمان برايما باري، المرجع السابق، ص: 45.

يرجع اصل قبائل السنغاي إلى قبيلة نشأت على ضفاف نهر النيجر الأوسط في فترة ما بين القرنين السابع والتاسع الميلاديين حين غزت إحدى قبائل البربر المسماة قبيلة ضيا Dia تلك المنطق وأسست أسرة حاكمة هي أسرة ضيا، والتي يعتبر "ضيا العالمين Dia Alamen" أول ملك لها، وفي سنة 1010م أسس الملك كوزي Kosi - الذي اعتنق الإسلام[24] - أول عاصمة للملكة وهي مدينة غاو Cao، التي تقع شرق الثنية الشمالية لنهر النيجر، وقد تلقب ملوكها بلقب "زا" إلى منتصف القرن الثاني عشر، ثم بلقب " سني "[25].

وعلى الرغم من تعرض هذه المملكة إلى توسعات إمبراطورية مالي منذ سنة 1325م إلا أنها استطاعت بنهاية القرن الرابع عشر تخليص نفسها من نفوذ هذه المملكة بقيادة أسرة الملك سوني علي، وأخذت في التوسع المستمر واكتساح المناطق التي كانت خاضعة للملكة السابقة الذكر في الفترة الممتدة ما بين 1464م و1492م، واستطاع الملك سوني علي من خلال حملاته ضم معظم المناطق التجارية والثقافية إلى المملكة الجديدة، واستولى على اشهر المدن التجارية الأخرى مثل تنبكتو وجيني وغيرهما من المدن الواقعة على ضفاف نهر النيجر، فامتد بذلك نفوذها، في ذروة مجدها، من الجزء الشرقي لمملكة مالي حتى منطقة كبي وبعض أجزاء من بلاد الهاوسا في السودان الأوسط حيث جمهورية نيجيريا الاتحادية وجمهورية الكاميرون الحاليتين[26].

غير انه وفي أواخر القرن السادس عشر تردت الإمبراطورية سياسيا بسبب نشوب النزاعات الداخلية بين أبناء الحاج محمد أسكيا وأقاربه، الأمر الذي مهد لدولة السعديين المغربية غزوها والقضاء على وجودها سنة 1591م، طمعا في فرض سيطرتها على الممرات التجارية والاستيلاء على مناجم الملح والذهب[27].

1-4 مملكة التكرور:

لقد أطلق الرحالة والجغرافيون العرب هذا الاسم على منطقة السودان الغربي بأكمله وفي مراحله التاريخية المختلفة، فقد أطلقوا هذا اللقب على مملكة مالي حيث

24- لقد اعتنق هذا الملك الإسلام وأصبح من المتعارف ان يحكم هذه القبائل ملك مسلم رغم ان القبائل نفسها لم تعتنق الإسلام وظلت على ديانتها القبلية. عصمت دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، ص: 127، 128. خوان جوزيف، المرجع السابق، ص: 81.

25- السعدي، المصدر السابق، ص ص: 3-5.

26- عثمان برايما باري، عثمان برايما باري، الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1424هـ/2000م، ص: 46، 47.

27- خوان جوزيف، المرجع السابق، ص: 86.

عرفوا باسم ملوك التكرور، كما أطلق على مملكة سنغاي، حيث يذكر السعدي أن الملك الحاج محمد اسكيا " اشترى جنانا في المدينة المشرفة وحبسها على أهل التكرور"[28].

والظاهر أن هذه المدينة لعبت دورا كبيرا في مجال التجارة مع بلاد المغرب أيا كان انتماؤها السياسي للممالك التي وقعت تحت حكمها، حيث كانت مصدرا مهما للتجار المغاربة من خلال توفير مادتي التبر والرقيق الذي يجلبونه من بلاد لملم[29]، وعن هذه المدينة يقول الإدريسي: " وهي في جنوب النيل وبينها وبين سلى مقدار يومين في النيل وفي البر، ومدينة تكرور اكبر من مدينة سلى وأكثر تجارة، واليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها التبر والخدم"[30].

بالإضافة إلى ذلك لعبت هذه المدينة دورا في مجال التجارة الداخلية حيث كانت تستورد الملح من مدينة اوليل الواقعة عند مصب نهر السنغال وتعمل على تمريره إلى المناطق الواقعة في المنطقة الغربية من بلاد السودان[31].

2 - الصلات التجارية للمغرب مع بلاد السودان:

يعود الاتصال الحضاري بين الشمال والجنوب إلى فترة ما قبل الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا، صحيح ان المادة التاريخية تعوزنا في تفصيل العلائق بين القطرين الا ان الاثار والنقوش المتوفرة تثبت وجود هذه العلاقات بين الطرفين، فالعربات التي تجرها الخيول والتي تمر على طريق يبدأ من وادي درعة إلى ادرار وصولا إلى دلتا نهر النيجر يوحي بتجذر العلاقات التجارية بين الطرفين، خاصة وان البحوث الحديثة توحي بان إفريقيا القارة وبلاد السودان منها بخاصة يمكن أن يكون مهدا لأقدم إنسان عثر عليه إلى حد الساعة[32].

إن الصلات الحضارية بين الشمال الإفريقي وجنوبه والتي يأتي في مقدمتها العلاقات التجارية ،حيث أن العنصر الحاسم الذي أثر في التطور الاجتماعي والحضاري بالسودان يتمثل في العامل التجاري، فإليه ينسب كثير من المؤرخين ما عرفته أقاليم

28- السعدي، المصدر السابق، ص: 73.

29- يذكر الإدريسي أن أهل سلى وتكرور وغانة يغيرون على بلاد لملم ويسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم فيبيعونهم من التجار الداخلين اليهم فيخرجهم التجار الى سائر الاقطار. نزهة المشتاق، ص: 19. ابن سعيد، الجغرافيا، ص: 91، 92.

30- الادريسي، نزهة المشتاق، ص: 9.

31- الادريسي، النزهة، ص: 17. ابن سعيد، الجغرافيا، ص: 91.

32- خوان جوزيف، المرجع السابق، ص: 15.

السودان من ازدهار حضاري وتطور سياسي واقتصادي، وذلك لما أتاحته القوافل من فرص الإطلاع على العادات والمعطيات الحضارية في حوض البحر المتوسط[33].

فهذا البكري يدلنا على بواكير العلاقات بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان، حيث يذكر أن عبد الرحمن بن حبيب والي المغرب (130-138هـ / 747-755م) اهتم بطريق القوافل لأهميته، فأمر بحفر ثلاثة آبار علي طريق القوافل الرابط بين مدينة تامدلت- جنوب المغرب الأقصى- ومدينة أودغست[34].

وهذا يدل على أن الاتصالات التجارية بين بلاد المغرب وبلاد السودان لم تبدأ من القرن الثالث الذي يمثل تدوين الجغرافي اليعقوبي في كتاب البلدان لمواصفات الطريق التجاري الرابط بين سجلماسة وأرض السودان[35]، حيث أن كتابة اليعقوبي عن العلاقة التجارية بين الطرفين والطرق السالكة إلى الممالك الإفريقية يعتبر من أوائل ما ذكر في كتب الجغرافيا والرحلات عن الموضوع، وان هذه العلاقات لها ما يثبتها من خلال ما عثر عليه من كشوفات أثرية، حيث وجد في مدينة رقادة الأغلبية قدح مزخرف -كان منتشرا استعماله طيلة الفترة العبيدية- يشبه الأقداح التي عثر عليها في حفريات مدينة اودغشت[36].

وتتجلى الأنشطة التجارية بين طرفي الصحراء في أواخر القرن الثالث الهجري فيما يخبرنا به المالكي عن حركة القوافل التجارية بين المغرب والسودان، إذ يذكر إن رجلا يدعى أبا عثمان آثر المال على القناعة فباع فندقا ودارا له، ثم اشترى ثلاثين جملا حتى أكملها مائة جمل بأحمالها وأعوانها ثم توجه يريد بلد السودان[37]، فهذه قافلة تخص تاجرا واحدا، وسيكون العدد أعظم وأضخم إذا ما انضم إلى القافلة مجموعة من التجار !!.

ولا تخلوا كتب النوازل من الإشارات النفيسة التي تدلل على نشاط الحركة التجارية بين المغرب وبلاد السودان، حيث يذكر الونشريسي نازلة تتعلق بالسفر إلى بلاد السودان على وجه المضاربة بمال الغير مع الإبطاء المفرط حتى وفاة المضارب في هذه

33- محمد الغربي، المرجع السابق، ص. 569.

34- البكري، المغرب، ص: 156 ، 157 .

35- اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن واضح، البلدان، مطبعة ليدن، 1860م، ص: 151.

36- كلوديت فاتا كير: نتائج التنقيب عن مدينة أودغست، أعمال المؤتمر التاسع للآثار الإسلامية فى الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1980، ص ص: 107 - 128 .

37- المالكي، ابو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، تح: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1414هـ/1994م، ج2، ص" 102.

البلاد، حيث جاء في محل الشاهد منها "وسئل[38] عمن دفع إلى رجل قراضا ليمضي به إلى ناحية تادمكة وهي بلاد السودان ... فسافر إلى تادمكة ثم مضى منها إلى غانة واودغست"[39]. فكما تدل هذه النازلة على هذه الرحلات التجارية إلى بلاد السودان، فهي في نفس الوقت تتضمن خبرا عن طبيعة الرحلة وخطورتها؛ الأمر الذي دفع المفتي يمنع مثل هذا النوع من القراض لما فيه من الغرر والمخاطرة ومضنة المهلكة بسبب خطورة المفازة إلى بلاد السودان.

وبقدر ما تدلنا المصادر على حجم المبادلات التجارية بين الطرفين وأهميتها في نفس الوقت؛ فإنها تدلنا على مدى التطور الذي وصلت إليه آليات التبادل التجاري ووسائله، وفي نفس الوقت تنوعها وتعددها، وإذا كانت المقايضة أو تبادل السلعة مقابل النقد يعتبر من باب العادة في مجال المبادلات التجارية، فان ما يرويه ابن حوقل في القرن الرابع الهجري اثر زيارته لمدينة اودغشت " حيث انه رأى صكا في حق لأحد تجار سجلماسة على تاجر أخر من أهلها قيمته اثنان وأربعون (42) ألف دينار[40]، ليدل على التطور في استعمال الشيكات كوسيلة للمعاملات التجارية في هذه الفترة، كما توحي قيمته بضخامة هذه المبادلات.

أما القرن الخامس الهجري المرتبط بظهور حركة المرابطين ودولتهم فهو يعكس حيقيقة الصلات الوثيقة بين بلاد المغرب والسودان لا في المجالات التجارية فحسب؛ بل يشمل العديد من النواحي الحضارية وعلى رأسها الجوانب الفكرية والدينية، حيث لا يمكن إنكار فضل المرابطين في إدخال الدين الإسلامي إلى كثير من الممالك، وإسلام العديد من ملوك السودان على أيديهم[41]، خاصة وان المرابطين قد بداوا دعوتهم بمحاذاة هذه الممالك الواقعة على نهر السنغال.

38- المقصود هو الإمام القابسي، ابو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري (324-403هـ/935-1012م)، من ابرز علماء المالكية في افريقية، وهو أول من ادخل صحيح البخاري شفاهة إلى افريقية. محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ، ص: 97 ترجمة رقم: 230.

39- الونشريسي، أبو العباس احمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ/1981م، ج9، ص: 116.

40- ابن حوقل، أبي القاسم، المسالك والممالك، طبعة بريل، ليدن، 1872، ص: 70.

41- حول هذا الموضوع يمكن مراجعة كتاب الباحثة عصمت عبد اللطيف، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا.

لقد نجح المرابطون في توحيد القبائل البربرية الواقعة على الطريق الرابط بين المغرب وارض السودان كقبيلة لمطة وجدالة ولمتونة ومن ثم السيطرة على أهم مراكز التجارة الرابطة بين سجلماسة ودرعة واودغشت ، وبالتالي احكموا قبضتهم على احد ممرات تجارة الذهب الرابطة بين بلاد السودان والمغرب الإسلامي[42].

بل يمكن القول إنهم تحكموا في الطريق الأساسي لتجارة الذهب في هذه الفترة؛ إذا ما نظرنا إلى التحولات الطارئة على الطريق الشرقي الرابط بين المغرب الأدنى وبلاد السودان واضطراب الطريق الأوسط الرابط بين تلمسان وورجلان والسودان الأوسط، وذلك بسبب الهجرات الهلالية إلى افريقية وما أحدثته من خلل على المستوى الاقتصادي بصفة خاصة والذي يعتبر الجانب التجاري من أهم جوانبه.

يضاف إلى هذه العوامل السياسية المعززة للتواجد المرابطي في المنطقة وفرضها السيطرة على الطرق التجارية عامل طبيعي يتمثل في الزوابع الرملية التي ساهمت في توقف الطريق الشرقي، وهو أمر فرض على التجار التحول إلى الطريق الغربي المار عبر مدينة سجلماسة الذي يتفرع بعد ذلك إلى مسلكين؛ أحدهما يؤدي إلى كوكيا شرقا، والآخر إلى اودغشت غربا، الأمر الذي فرض على التجار المشارقة سلوك هذا المسلك الغربي، ومن ثم إسهامهم في جعل سجلماسة من أغنى المراكز التجارية والعلمية في كل بلاد الإسلام[43].

وكنتيجة لتوحيد المرابطين بين هذه الأقاليم وسيطرتها على الطرق التجارية واستتباب الأمن داخل الدولة وعبر هذه الطرق التي امتدت من أقصى شمال القارة إلى مناطق الذهب بالسودان؛ ازدهرت الحركة التجارية نشطت قوافل المسلمين بين الشمال والسودان " وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وامن"[44].

أما في الفترة الموحدية فقد شكلت التجارة المتبادلة بين بلاد المغرب وخاصة الأقصى منه وبلاد السودان ركنا هاما ومصدرا أساسيا في التجارة الخارجية للبلاد، خاصة وان المغرب الأقصى صار معبرا لتجارة الجنوب المتجهة إلى الأندلس وأوربا والمشرق الإسلامي، ومن هنا اكتسبت التجارة بين المغرب الأقصى وبلاد السودان أهمية خاصة[45].

42- عصمت دندش، دور المرابطين، ص: 55، 56.

43- محمد الغربي، المرجع السابق، ص: 37.

44- ابن أبي زرع الفاسي، أبو الحسن علي بن عبد الله، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص: 167.

45- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1980، ص: 281، 282.

وإذا كانت الدولة المرابطية ارتبطت ببلاد السودان ارتباطا مباشرا وأصبح لها وجود سياسي وديني، واقتصادي تجاري، وفكري في المنطقة، بحكم أن المرابطين ينتمون إلى قبائل الصحراء المحاذية لممالك السودان، فان الموحدين قد تركوا المجال للتجارة كي تلعب دورها في تفعيل العلاقات بين ضفتي الصحراء، وذلك نظرا للجبهات التي كانت مفتوحة في الشمال على الدولة الموحدية؛ في الأندلس والمغربين الأوسط والأدنى.

فبالنظر إلى الوثائق الرسمية، أو النصوص التاريخية، نجدها قليلة فيما يتعلق بالعلاقات مع بلاد السودان في الفترة الموحدية؛ إذا ما قورنت بحجم الوثائق المتعلقة بالعلاقات مع ايطاليا واسبانيا النصرانيتين، حيث نجد في مجموع الرسائل الرسمية الصادرة عن الموحدين او الواردة إليهم رسالة واحدة تتعلق بالعلاقات مع بلاد السودان[46]، وهي رسالة صادرة عن والي سجلماسة أبي الربيع[47] سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن إلى ملك غانة من بلاد السودان ينكر عليه فيها تعويق التجار والتي جاء فيها: " نحن نتجاوز بالإحسان وان تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية، ونتألف على الرفق بالرعية، ومعلوم ان العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجور لا تعانيه الا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده، وتردد الجلابة إلى البلد مفيد لسكانها، ومعين على التمكن من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهتنا من أهل تلك الناحية لكنا لا نستصوب فعله، ولا ينبغي لنا أن ننهى عن خلق ونأتي مثله، والسلام"[48].

والرسالة على الرغم من قصرها وعدم معرفة الأسباب التي أدت إلى تعويق ملك غانة للتجار المغاربة أو فئة منهم كما تصفهم الرسالة بنعت" مساكين التجار"، إلا أنها تتضمن مجموعة من المعطيات حول التبادل التجاري بين الطرفين، فهي مبدئيا تقرر وجود نشاط تجاري بين الطرفين الموحدين وبلاد السودان، كما أنها تثبت تنقل كل من المغاربة إلى ارض السودان، وتواجد التجار السودانيين ببلاد المغرب، هذا بالإضافة إلى

46- احمد عزاوي، عزاوي احمد ، رسائل موحدية (مجموعة جديدة)، منشورات كلية الاداب، القنيطرة، ط1، 1416هـ/1995م، ج2، ص: 240.

47- تنظر ترجمته المفصلة في: ديوان الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحد، تح: محمد بن تاويت الطنجي وآخرون، منشورات كلية الآداب، الرباط، دت، ص ص: 3-14.

48- المقري، نفح الطيب، ج3، ص: 105.

ما فيها من دلالة على الرؤية الايجابية لهذا الوالي تجاه النشاط التجاري وفوائده على البلد وتشجيعه له.

كما أن المنصور الموحدي أرسل إليه بهدية من بلاد السودان، تتمثل في فيل عظيم، فرده، مع إكرام من أتى به وقال " نحن لا نريد أن نكون من أصحاب الفيل"[49]، هذا ما ورد عن العلاقات الرسمية بين السلطة الموحدية ممالك السودان في هذه الفترة، إلا أن هذه الأنباء لا تعكس حقيقة واقع العلاقات التجارية والثقافية بين الطرفين، فقد لعبت الحواضر المغربية دورا بالغا - مثل ما كانت عليه في الفترة المرابطية — في صبغ الأقاليم السودانية بالثقافة المغربية الإسلامية، وخير ما نستدل به على ذلك التواصل الثقافي بين الطرفين شخصية الأديب والشاعر أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي؛ الذي أقام بمراكش، وتوفي بها، وفيها لقي سفير صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة المنصور الموحدي، حيث يؤثر عنه انه مدح الخليفة المنصور ببيتين مشهورين قال فيهما:

أزال حجابه عني وعيني تراه من المهابة في حجاب

وقربني تفضله ولكـــــن بعدت مهابة عند اقترابي[50]

إن السياسة الموحدية تجاه منطقة السودان كانت تكتسي أهمية بالغة من الناحية التجارية، فقد عملت جاهدة على ضمان السير العادي لهذا الشريان الاقتصادي الحيوي وعدم السماح لأي عارض يعكر سير الحركة التجارية بين الطرفين، ومما يدل على ذلك ما ذكره المقري من رواية القسطلاني الذي دخل على والي سجلماسة السيد أبي الربيع السالف الذكر فوجد بين يديه أنطاع عليها رؤوس جماعة من قطاع الطرق الصحراوية، قتلوا بسبب اعتراض سبيل القوافل التجارية والسفّار المتوجهين إلى بلاد غانة، وهو ينكت الأرض بقضيب من الأبنوس ويقول:

ولا غروّ أن كان رؤوس عداته جوابا إذا كان السيوف رسائل[51]

ويدلل على هذه السياسة الموحدية الحريصة على تشجيع التجارة مع بلاد السودان ورود الكثير من الإشارات في كتب الجغرافيا المعاصرة للفترة المدروسة عن وجود حركة تجارية دؤوبة بين طرفي الصحراء، فهذا ابن سعيد يصف العلاقة بين

49- المقّري، ابي العباس احمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ/ 1988م، ج3، ص: 103.

50- الناصري، الاستقصا، ج2، ص: 176.

51- المقري، نفح الطيب، ج3، ص: 105.

وارجلان وبلاد السودان بقوله:" وهي (اي وارجلان) بلاد نخل وعبيد، ومنها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط وافريقية، والسفر منها في الصحراء إلى بلاد السودان كثير"[52].

أما صاحب الاستبصار فيذكر أن " أغمات مدينتان؛ إحداهما تسمى اغمات وريكة والأخرى اغمات هيلانة، وبينهما نحو ثمانية(8) أميال، وباغمات وريكة يسكن الأعيان، وبها ينزل التجار على القديم، لأنها كانت دار التجهز للصحراء"[53].

ويصف الإدريسي أهلها بأنهم" تجار مياسير، يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر الملون، والأكسية وثياب الصوف، والعمائم والمآزر، وصنوف النظم من الزجاج، والأصداف والأحجار، وضروب من الافاويه والعطر، وآلات الحديد المصنوع"[54].

ولكثرة البضائع المصدرة إلى بلاد السودان كانت القوافل كبيرة الحجم والعدد، حيث كان يصل عدد جمال التاجر الواحد في القافلة من السبعين إلى مائة جمل محملة بمختلف البضائع، فأهل اغمات مثلا " ما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم مائة جمل والسبعون والثمانون جملا كلها موقرة"[55].فاغمات بهذا الوصف أصبحت عاصمة للتجارة مع بلاد السودان في هذه الفترة.

كما يصف الإدريسي بلاد غانة بقوله: وهي اكبر بلاد السودان قطرا، وأكثرها خلقا، وأوسعها متجرا، واليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى"، ولا يقتصر سفر أهل المغرب في رحلة التجارة إلى بلاد السودان على مدينة غانة فحسب، بل نجد ذكرا لهم في كثير من المدن السودانية المشهورة بعلاقاتها التجارية مع بلاد المغرب الإسلامي[56].

وبالإضافة إلى المصادر الجغرافية، تزودنا كتب التراجم بمعلومات حول نشاط الحركة التجارية بين المغرب الموحدي وبلاد السودان، وقيمة العائدات المالية التي كانت تجنى من التجارة مع هذا القطر، حيث يذكر صاحب التشوف في ترجمته لأبي الربيع سليمان بن عبد الرحمن التلمساني الفاسي، المتوفى سنة 579هـ، انه أعطى تاجرا من أهل فاس متوجها للاتّجار ببلاد السودان أردية ليبيعها هناك، وعلى الرغم من وفاة هذا التاجر

52- ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص: 126.

53- الاستبصار، ص: 207.

54- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص: 232.

55- الإدريسي، النزهة، ص: 232. وينظر أيضا: المالكي، رياض النفوس، ج2، ص: 102.

56- ينظر: الادريسي، نزهة المشتاق، ص: 17، 22، 23، 24، 105، 109، 110، 529. الاستبصار، ص: 217 219، 221، 222. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص: 113. 115. 126

بأرض السودان، إلا أن تركته وصلت إلى فاس، وضمنها صرة من ذهب مكتوب عليها للفقيه أبي الربيع[57]، وعلى الرغم من امتناع هذا الفقيه من اخذ هذه الأموال تورعا كما توحي بذلك تفاصيل الترجمة، إلا أن الشاهد من الترجمة هو العائد المالي الوفير مقابل مجموعة من الأردية.

إن الشواهد المصدرية كثيرة متعددة، وفي مجملها توحي بحركية التبادل التجاري بين بلاد المغرب وارض السودان، وان هذه الحركة ما هي إلا استمرارية للتواصل بين طرفي الصحراء عبر مراحله التاريخية المتعددة وان اختلفت الظروف السياسية من حقبة إلى أخرى، مع ملاحظة أن هذا التبادل كان في غالبية الأحيان نابعا من الجهود الشخصية وإرادة التجار الطموحين إلى الكسب وتحصيل الثروات جراء الاتجار مع ارض السودان المقرونة بمادة الذهب.

وان السلطة الموحدية؛ وان كانت المستفيد الأساسي من نشاط الحركة التجارية مع هذه الأقاليم لما تدره من مادة الذهب التي تعتبر عصب الصناعة في دور السكة والمعدن النفيس المشكل للعملة، غير أنها لم تقترن مع هذه الأقاليم التجارية بإطارات قانونية مثل من العهود والمواثيق والاتفاقيات كما هو الشأن بالنسبة للتجارة مع المدن الايطالية والممالك النصرانية.

وإذا كانت التجارة السودانية في هذا المستوى من الرواج والأهمية مع بلاد المغرب، فان الأمر يجرنا للتساؤل حول طبيعة المبادلات التجارية القائمة بين الطرفين؟، وكذلك التساؤل عن آليات التبادل في هذا النشاط التجاري؟ أو ما يمكن اختصاره في الصادرات والواردات وصيغة المبادلات.

3-: طبيعة المبادلات التجارية؛ الصادرات والواردات:

إن الحديث عن طبيعة المبادلات التجارية مع بلاد السودان يجرنا مباشرة إلى الحديث عن تجارة **الذهب والملح** من ناحية وتجارة **الرقيق** وما يقابلها من منتجات مغربية صناعية وفلاحية مختلفة، حيث كانت هذه السلع هي عصب التجارة بين طرفي الصحراء التي لاغنى لطرف عن الأخر في تحصيلها، فالمغرب عصب اقتصاده ذهب السودان وعماد قوته العسكرية عبيده، بينما كان الفرد السوداني يعتبر الملح المغربي رحيق حياته وسط ظروف طبيعية قاسية تجعل منه(الملح) مادة حيوية يمكن مساواتها بقناطير الذهب، يضاف إلى ذلك منتجات المغرب التي يراها العنصر السوداني الذي يعيش في صحاري قاحلة أشياء طريفة ونفيسة.

57- ابن الزيات التادلي، ابو يعقوب يوسف بن يحي، التشوف إلى رجال التصوف، تح: احمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997م، ص: 282.

3-1 الذهب:

شكل الذهب مادة أساسية في نطاق المبادلات مع بلاد السودان ان لم نقل انه هو الدافع الوحيد الذي شجع التجار المغاربة على خوض غمار السفر إلى بلاد السودان على الرغم مما يعترضهم من مخاطر[58]، فعلى الرغم من توفر هذه المادة في بعض المناطق من بلاد المغرب كبلاد السوس بالقرب من مدينة تامدورت[59]، وبين تازرارت وبلاد السودان[60]، إلا أن ذهب السودان قد شكل الركيزة الأساسية لاقتصاد بلاد المغرب الإسلامي، خاصة منذ عصر المرابطين بعد ان احكموا سيطرتهم على المحور التجاري الرابط بين سجلماسة واودغشت، وبسط نفوذهم ولو نسبيا على مملكة غانة المحتضنة لمراكز إنتاج هذه المادة[61].

ونظرا لذلك ظل الذهب ومصادره وطرقه محط انظار العديد من القوى السياسية التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب الإسلامي، مما أدى إلى ظهور صراع حاد بين بعض الدول خاصة بين الأمويين في الأندلس والدولة العبيدية في المغرب من اجل السيطرة على مسالك التجارة الرابطة جنوبا – شمالا بين الواجهتين الخطيرتين في الدورة التجارية المغربية، هذا الصراع الذي تركز في النهاية على محاولات السيطرة على المسلك الغربي لتجارة الذهب[62]

ان الإشارات المصدرية التي تدلل على هذا الطرح المسلم به كثيرة ومتنوعة، ومن ذلك ما وصف به البكري مدينة اودغشت بقوله: " سوقها عامرة الدهر كله، لا يسمع

58- يذكر جون ديفس J. Devisse ان الذهب كان من اهم المواد التجارية السودانية التي احتاج اليها المغرب الاسلامي خلال العصور الوسطى نظرا لعلاقته بالمجال النقدي، ويبدو ان الذهب كان هو المحرك الفعلي في العلاقات التجارية بين الشمال الافريقي وغرب افريقيا. Devisse jean, « Routes Méditérranée : de commerce et échanges en afrique occidentale en relation avec la essai sur le commerce africain médiéval du XV au XVI e s ». Revue d'histoir économique et sociale, 1972. P ; 49. نقلا عن: شعبان عبد الرحيم، المرجع السابق، ص: 267.

59- اليعقوبي، كتاب البلدان، ص: 359.

60- المقدسي، احسن التقاسيم، ص: 231.

61- البكري، المغرب، 159، 176، 177.

62- الجنحاني الحبيب، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1980م، ص: 73.

الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله، وتبايعهم بالتبر وليس عندهم فضة، " وذهب هذه المدينة أجود ذهب أهل الأرض وأصحه[63].

ويضاف إلى وصف البكري لاودغست وصف الحميري لبلاد التكرور التي "يسافر إليها أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها بالتبر والخدم"[64]، وهي نفس العبارة التي ذكرها الإدريسي عن تجارة أهل المغرب الأقصى مع أهل هذه المدينة، كما وصف مدينة كومبي بأنها كانت من اكبر أسواق الذهب، وفي نفس السياق وصف مدينة ونقارة بأنها بلاد التبر المشهور بالطيب والكثرة، والتي تقع في جزيرة طولها ثلاثمائة ميل وعرضها مائة وخمسون ميلا، يحيط بها النيل من كل جهة في سائر السنة، حتى إذا انحصر اخذ الناس يبحثون عن الذهب، " فيرجع كل إنسان منهم بما أعطاه الله كثيرا أو قليلا من التبر، وهي اكبر غلة عند السودان وعليها يعول صغيرهم وكبيرهم "[65].

لقد كانت كمية الذهب المصدرة إلى بلاد المغرب ضخمة جدا تتراوح بين 4 و 9 طن سنويا، أو 3 طن في السنة كأدنى حد لها[66]، وان كانت هذه الكمية قد تضاءلت قيمتها في الفترة الموحدية بسبب تغير أوضاع الصحراء الصنهاجية التي كانت خاضعة للمرابطين وأصبحت بعد قيام الدولة الموحدية مركزا لثوار المرابطين، وهو وضع سياسي اثر على المسلك الغربي للذهب الوارد إلى بلاد المغرب عبر سجلماسة ورواج حركة هذه المادة عبر المسالك الوسطى باتجاه مدينة وارجلان، إلا أن هذا لا يعني انعدام ورود الذهب عبر المسلك الغربي، فهذا الإدريسي يذكر توزع مادة الذهب بين المسلكين في قوله عن أهل ونقارة:" فإذا عاد النيل إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضا، واشترى أكثره أهل واركلان وأهل المغرب الأقصى، وأخرجوه إلى دور السكك في بلادهم، فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات "[67].

ومع هذا يبقى حجم الذهب الوارد إلى المغرب الموحدي قليلا إذا ما قورن بفترة المرابطين؛ خاصة مع ورود بعض الشواهد التي تعبر عن توتر الصلات التجارية أحيانا

63- البكري، المغرب، ص: 158، 159.

64- الروض المعطار، ص: 134.

65- نزهة المشتاق، ص: 18، 24.

66- لقد اهتم بعض الباحثين بتقدير كمية الذهب المصدرة إلى المغرب سنويا من بينهم ريمون موني الذي قدرها بنسبة 9 طن/ السنة، وكذلك الباحث كودينيو الذي رأى بأنها لا تتجاوز نسبة 4 طن/ السنة، أما جون ديفس يعتقد أن حجم الذهب المصدر إلى المغرب كان يصل إلى 2 طن/ السنة ولا يتجاوز في رأيه 3 طن/ السنة. عبد الرحيم شعبان، مسكوكات الموحدين، ص: 270.

67- الإدريسي، النزهة، ص: 24، 25.

بين الطرفين بسبب تعويق ملوك غانة للتجار المغاربة وتعرضهم لمضايقات تعيق حرية الحركة التجارية كما حدث مع تجار سجلماسة في فترة الوالي أبي الربيع سليمان الموحدي.

ومن خلال ما سبق يتبين أن الذهب السوداني شكل لعدة قرون عصب الاقتصاد المغربي، مادة أساسية في عملية التبادل التجاري بين بلاد السودان والمغرب الإسلامي، وبين هذا الاخير وبلاد المشرق الإسلامي ودول البحر المتوسط، وهو أمر أهّل الدول المغربية وعلى رأسها المرابطين ثم الموحدين من بعدهم إلى أن يصبحوا سادة العالم في هذه الحقبة، وأصبحت العملة المغربية ذات سيادة واعتراف دولي لعدة قرون.

3-2 الملح:

تعتبر مادة الملح سلعة أساسية لسكان بلاد السودان، حيث لا بد للقبائل القاطنة في هذه المناطق مثل الوانجار أن تستورد هذه المادة الحيوية من خارج البلاد لندرته فيها، فالملح يعتبر رحيق الحياة بالنسبة لإنسان السافانا الذي يعيش تحت الشمس المحرقة التي يخرج على إثرها الخزين الملحي الذي يتحصن به جسم الإنسان، فيتعرض إلى العلل والأمراض التي تؤدي إلى موته الحتمي[68].

ونظرا لأهمية هذه المادة وندرتها[69] في المنطقة من ناحية؛ ووفرة مادة الذهب من ناحية أخرى اقترنت تجارتها بمعدن الذهب، الذي كان يبذله السودانيون في تحصيل هذه المادة، فأصبح الملح انطلاقا من هذه الأهمية التي اكتساها بمثابة العملة الموازية لعملة الذهب في القيمة والقدر، وفي ذلك يقول ابن بطوطة: " وبالملح يتصارف أهل السودان كما يتصارف بالذهب والفضة، يقطعونه قطعا ويتبايعونه... والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا اداما ولا دينارا ولا درهما، إنما يحمل قطع الملح"[70]. كما يذكر ابن حوقل أن الحمل الواحد من الملح يبلغ في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار[71].

لقد كانت تجارة الملح تدر أرباحا هائلة على أصحابها، فقد أشار البكري الى الملح الموجود بين مدينتي سجلماسة واودغشت وذكر انه يتجهز به إلى سجلماسة وغانة وسائر

68- خوان جوزيف، المرجع السابق، ص: 52.

69- الاستبصار، ص: 219.

70- ابن بطوطة، الرحلة، ج2، ص: 231.

71- ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 98.

السودان، "والعمل فيه متصل، والتجار إليه متسايرون، وله غلة عظيمة"[72] . كما أن مدينة تغازي " على حقارتها يتعامل فيها بالقاناطير المقنطرة من التبر "[73].

ونظرا للأهمية التي تكتسيها تجارة الملح في هذه الفترة دفعت بمملكة غانة إلى الاستحواذ على الطريق الذي تمر عبره هذه التجارة إلى بلاد السودان، كما قاموا بالإشراف على نقل كميات هائلة من الملح الصخري عبر هذا الطريق الطويل، الرابط بين تغزة مركز الإنتاج إلى مناطق ما وراء الحدود الجنوبية لإمبراطورية غانة[74].

ومع ندرة المصادر المحلية للملح بالسودان[75] فقد كان يتزود بالملح من مملحتين رئيسيتين؛ مملحة مدينة تغازي[76]، حيث يوجد بها منجم للملح، ونظرا لقحالتها وانعدام شروط الحياة بها عدم توفرها إلا على مادة الملح وصفها ابن بطوطة بقوله:" وهي قرية لا خير فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال، ولا شجر فيها وإنما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة "[77].

والمصدر الثاني مملحة منطقة "تاتنتال" التي تبعد مسافة عشرين يوما عن سجلماسة، وقد عده البكري من غرائب هذه الصحراء، حيث " تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن، ويوجد تحت قناة أو دونها من وجه الأرض، ويقطع كما تقطع الحجارة، وعليه حصن مبني من حجارة الملح، وكذلك بيوته ومشارفه وغرفه كل ذلك من ملح، ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وسائر السودان "[78].

هذا بالنسبة لمصادر الملح خارج بلاد السودان، وقد أشار الإدريسي إلى تواجد الملح في جزيرة اوليل التي تقع على البحر بالقرب من الساحل، بها الملاحة المشهورة، ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها، ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان، وذلك أن المراكب تأتي إلى هذه الجزيرة فتوسق بها الملح وتسير منها إلى موقع النيل وتتجه به إلى سلى وتكرور وغانة وبلاد ونقارة وكوغة وجميع المناطق من ارض السودان[79].

72- البكري، المغرب، ص: 171.

73- ابن بطوطة، الرحلة، ص: 231.

74- خوان جوزيف، المرجع السابق، ص:

75- ذكر الادريسي جزيرة اوليل الواقعة علي شاطئ المحيط الأطلسي والتي تفصلها مسيرة ثلاثين يوما من أودغست وبها الملاحة الشهورة، وانه " لا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها". النزهة، ص: 17.

76- هي على مسافة خمس وعشرين (25) يوما من سجلماسة.

77- ابن بطوطة، الرحلة، ص: 231.

78- البكري، المغرب، ص: 171.

79- الادريسي، النزهة، ص: 17.

وبالتالي فإن هذه البضاعة ذات أهمية في العلاقات التجارية بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان نظرا لندرتها هناك، فاعتبرت مصدرا رئيسا للربح الوافر والحصول على كميات كبيرة من الذهب.

ولقد وصف الباحث جوزيف خوان هذه الصفقات التجارية المتعلقة بمادتي الذهب والملح بقوله:" لقد كانت قبائل الوانجارا هي المستورد الرئيسي لهذه السلعة الحيوية لحاجتهم إليها، وكانت المناطق التي تعيش فيها هذه القبائل غنية بالذهب بصورة غريبة لدرجة أنهم كانوا يدفعون ثمن الملح ذهبا، وبنفس الوزن في اغلب الأحيان، وكانت عمليات مقايضة الذهب بالملح التي كانت تتم بين قبائل السونيك التي تقدم الملح وقبائل الوانجارا التي تقدم الذهب من اغرب عمليات التبادل التجاري في التاريخ[80]

3-3 الرقيق:

اعتبر الرقيق من اشهر التجارات بين الشمال والجنوب مضافا إلى سلعتي الذهب والملح، حيث اقبل التجار الوافدون من شمال إفريقيا على اقتناء العبيد الذين تزخر بهم الأسواق في بلاد السودان، وقد ذكر الإدريسي في معرض حديثه عن مدينة لملم[81] أن أهل سلى وغانة وتكرور يغيرون على هذه البلاد ويسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم فيبيعونهم من التجار الداخلين إليهم، فيخرجهم التجار إلى سائر البلاد[82].

كما ذكر ابن بطوطة اثر زيارته لمنطقة تكدا أن أهلها يشترون من قضبان النحاس التي يصنعونها ثم يبيعونها عبيدا وخدما[83]، بل إن العبيد قد استخدموا كوسيلة للأداء وقاموا مقام العملة، حيث كان أهل سنغاي يدفعون خمسة عشر رقيقا مقابل حصان واحد.

وقد اشتهر أهل المغرب الأقصى بشراء الخدم والعبيد من بلاد السودان، حيث يذكر أن أهل المغرب الأقصى يسافرون إلى بلاد تكرور بالصوف والنحاس والخرز، ويخرجون منها بالتبر والخدم[84].

80- جوزيف خوان، المرجع السابق، ص: 52.

81- منطقة واقعة على واد يمد النيل وهي تتصل من جهة المغرب بأرض مقزارة، ومن جهة المشرق بأرض ونقارة، ومن جهة الشمال بأرض غانة، وأهلها يهود، والغالب عليهم الكفر والجهالة، وجميع أهل هذه البلاد إذا بلغ احدهم الحلم وسم وجهه وصدغاه بالنار وذلك علامة لهم. الإدريسي، النزهة، ص: 19.

82- الإدريسي، النزهة، ص: 19.

83- ابن بطوطة، الرحلة، ص: 250.

84- النزهة، ص: 18. 20

3-4 مواد أخرى:

لم تقتصر المواد المتبادلة على الذهب والملح والرقيق بل كانت بعض المواد الأخرى التي كانت تنقل بين المغرب وبلاد السودان، ومنها:

التمور: كانت تصدر إلى بلاد السودان من مدينة أوجلة ومن منطقة ودان " قتمور ودان أطيب، ومنها يدخل إلى بلاد السودان"[85]، كما كانت تصدر من مدينة سجلماسة فقد ذكر الإدريسي انه " ليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة أو بلاد الزاب يجلبه إليهم أهل وارقلان[86].

المواد الغذائية:كانت بلاد السودان شحيحة من حيث المنتجات الفلاحية؛ لذلك كانت تنقل إلى أهل زغاوة الحنطة من وارقلان[87].

النحاس المسبوك كان يجلبه التجار المغاربة إلى مدينة كوغة [88].

المصنوعات الحديدية: كانت تصنع في كل من فاس ومراكش، وتتمثل في الأدوات المنزلية والزخارف والشمعدانات والفوانيس، ولوازم السروج، وحلق الأبواب، وأدوات الزينة، وكانت تصنع من النحاس خاصة، بالإضافة إلى أقفال الأبواب، وأدوات الخيل والجمال، والمحاريث، والفؤوس والسلاسل[89].

المصنوعات الزجاجية:تتمثل في الكؤوس والسبح، وعقود الزينة، وقوارير العطور، وكانت هذه البضائع غالية الثمن، ولا يقبل على شرائها إلا الموسرون[90].

الصوف والمنسوجات القطنية:

حيث كانت مدينة جيمي قاعدة مملكة الكانم تستورد المنسوجات والثياب من تونس[91]. كما كانت تصدر إلى بلاد السودان من مدينة اغمات الأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر[92]، أما أهل المغرب الأقصى فقد كانوا يتاجرون بالصوف الخام مع مدينة تكرور[93].

85- الادريسي، النزهة، ص: 312.

86- الادريسي، النزهة، ص: 20.

87- الادريسي، النزهة، ص: 111.

88- النزهة، ص: 232. الاستبصار، ص: 222.

89- النزهة، ص: 232. محمد الغربي، المرجع السابق، ص: 445.

90- النزهة، ص: 232. محمد الغربي، المرجع نفسه، ص: 446.

91- ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص: 95.

92- النزهة، ص: 232.

93- النزهة، ص: 18.

الشب والصبغيات: يتوفر في مدينة كوار من عمل كوكو، وهو ليس بكثير الجودة، كان التجار يخلطونه بالشب الطيب ويسافرون به إلى جميع الجهات[94].

التوابل: وعلى رأسها الفلفل الأحمر الصغير وبعض الابازير[95]. كما كان أهل سجلماسة ينتجون غلات من الكمون والكروياء والحناء ويتجهزون بها إلى سائر بلاد المغرب وغيرها[96]

المرجان: ينتج في مدينة سبتة، وبها سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرازا وثقبه ونظمه، ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد، وأكثر ما يحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان، لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيرا[97]، بالإضافة إلى الأصداف والأحجار الكريمة[98] والودع، وهي القواقع التي استخدمت كعملة للتبادل لفترة طويلة، ثم أصبحت إحدى السلع المستوردة من بلاد المغرب[99].

العطور: كانت تصدر من مدينة أغمات ضروب من الأفاويه والعطور[100].

4- : طريقة المبادلات التجارية

لم يعرف أهل السودان التعامل بالعملات المسكوكة كما هو الحال بالنسبة لبلاد المغرب الإسلامي أو غيرها من الدول في هذه الفترة؛ وإنما عرفت المنطقة مبدأ التعامل بالمقايضة في مختلف المبادلات التجارية، سواء مع التجار الأجانب الوافدين إلى ارض السودان من بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين، أو مع تجار السودان أنفسهم، حيث كانت السلعة التي يراد اقتناؤها تمثل عملة للتجار الوافدين بالنسبة للسكان الأصليين، وفي مقابلها يجني التجار سلعة أخرى غالبا ما تكون كميات من التبر في أشكاله المختلفة عروقا كان أو مسحوقا أو قطعا صغيرة خاما.

ولم تكن مقايضة سلع الشمال بمادة التبر على وجه الحصر وإنما استخدمت سلع أخرى مكان الذهب كمقابل للسلع الواردة من بلاد المغرب، ومن ذلك العبيد والخدم، فقد كانت الخيول التي يجلبها المغاربة تقايض وتستبدل بمجموعة من العبيد

94- ابن سعيد، الجغرافيا، ص: 105.

95- محمد الغربي، مرجع سابق، ص: 452.

96- الادريسي، النزهة، ص: 226.

97- الادريسي، النزهة، ص: 529.

98- النزهة ، ص: 232.

99- الاستبصار، ص: 222. محمد الغربي، مرجع سابق، ص: 450.

100- النزهة ، ص: 104، 232.

بمعادلة حصان واحد مقابل خمس عشرة عبدا، كما اتخذ أهل كوكو الودع عملة للبيع والشراء فيما بينهم[101]

والأمر لا يتوقف عند عملية المقايضة كوسيلة للمبادلات التجارية في هذه المنطقة؛ بل إن الغريب في هذه العملية هو الطريقة التي تتم بها هذه المبادلة، وهي ما أطلق عليها بالتجارة الصامتة، حيث يتلخص معناها في إقامة سوق على ارض منبسطة واسعة على شاطئ النهر، حيث يقوم التجار الذين يحملون صخور الملح بوضعها في أكوام منتظمة، ويوضع وراء كل كومة من الملح أنواع البضائع الأخرى التي يراد بيعها مثل جلود الحيوانات والقطن وغيرها، ثم يعمل هؤلاء التجار بقرع الطبول كعلامة على بداية السوق ثم يرحلون بعيدا لمسافة نصف يوم من الرحيل المتواصل.

وفي غياب التجار تصل قوارب السكان الراغبين في شراء السلع بمعاينة أكوام الملح والبضائع المتروكة هناك، ويضعون لكل كومة ما يقابلها من الذهب حسب تقديرهم ثم يرحلون إلى منطقة بعيدة عن السوق، ليأتي في صباح اليوم التالي التجار لمعاينة قيمة أكوام الذهب المتروكة مقابل سلعهم، ويكون قرع الطبول علامة على قبول الصفقة وعدم ذلك مدعاة إلى إعادة العملية السابقة من اجل زيادة كمية الذهب حتى يتراضى الطرفان وتتم الصفقة كاملة[102].

لقد لعبت التجارة بين طرفي الصحراء دورا بارزا وكبيرا عاد بالمنافع الجمة على كلا المنطقتين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد السودان على حد السواء، فكان من فضل التجار المغاربة على هذه المناطق نشر الإسلام في ممالك السودان الوثنية، وإقامة ممالك متحضرة ومزدهرة من الناحية التجارية والعمرانية، كما لعبت فئة التجار دورا مهما في توطيد العلاقات بين الطرفين.

وفي مقابل ذلك؛ ساهمت ارض السودان في إنعاش الاقتصاد المغربي من خلا تصدير كميات الذهب الكبيرة التي مثلت أساس العملة المغربية لعدة قرون من الزمان، يضاف إلى ذلك تزويد المجتمع المغربي بعنصر العبيد الأسود الذي مثل فئة جديدة ومهمة في الحياة الاجتماعية والعسكرية على السواء.

ومما يلاحظ ويمكن استنتاجه في مجال العلاقات التجارية للدولة الموحدية مع بلاد السودان طغيان الجهود الشخصية في مجال النشاط التجاري مع هذه المناطق على الرعاية الحكومية، حيث فغالبا ما كانت المبادلات التجارية نابعة من إرادة الأشخاص

101- ابن بطوطة، الرحلة، ص: 248.

102- خوان جوزيف، المرجع السابق، ص ص: 52-54.

الطموحين المغامرين الراغبين في ثروة السودان الذهبية، الأمر الذي تدل عليه قلة النصوص المصدرية الدالة على ذلك كما هو الشأن بعلاقات الموحدين مع الدول الأوربية.

إلا أن هذا الغياب لم يكن كليا حيث لا تخفى أهمية التجارة مع بلاد السودان بالنسبة للسلطة الموحدية وما توفره من عائدات مالية كبيرة تعتبر عصب الاقتصاد، خاصة وان بعض المصادر الجغرافية تشير إلى نشاط المبادلات التجارية وتنوع السلع المتبادلة بين الطرفين، وكذا جهود بعض ولاة الموحدين في الحفاظ على صيرورة النشاط القافلي ومعاقبة كل من يتسبب في زعزة استقرار وامن الطرق التجارية الرابطة بين أقاليم المغرب وارض السودان، وبالتالي يمكن إرجاع الخلل إلى شح المادة العلمية وعدم اعتناء الكتاب في هذه الفترة بتدوين كل جوانب العلاقات بين الطرفين.

قائمة المراجع:

- الإدريسي، محمد بن عبد الله السبتي الشريف نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/2002م.

- ابن أبي زرع الفاسي، أبو الحسن علي بن عبد الله، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.

- ابن الزيات التادلي، ابو يعقوب يوسف بن يحي، التشوف إلى رجال التصوف، تح: احمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997م.

- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الخيرية، ط1، 1322هـ، ج2.

- ابن حوقل، أبي القاسم، المسالك والممالك، طبعة بريل، ليدن، 1872.

- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى الغرناطي، كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1982م.

- ابن فرحون، إبراهيم بن نور الدين المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: مامون بن محي الدين الحنان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ/1996م.

- ابن مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ

- أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحد، تح: محمد بن تاويت الطنجي وآخرون، منشورات كلية الآداب، الرباط، دت.

- احمد عزاوي ، رسائل موحدية (مجموعة جديدة)، منشورات كلية الاداب، القنيطرة، ط1، 1416هـ/1995م، ج1 ج2.

- الإدريسي، ، محمد بن عبد الله السبتي الشريف نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/2002م.

- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، طبعة حجرية، الجزائر، 1857

- الجنحاني الحبيب، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1980م.

- السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر، تاريخ السودان، مطبعة باريس، 1981م.

- المالكي، ابو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، تح: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1414هـ/1994م، ج2.

- المقّري، ابي العباس احمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ/ 1988م، ج1، ج2، ج3، ج4.

- الوزان، الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ج2، ص : 108.

- الونشريسي، أبو العباس احمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ/1981م، ج9.

- اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن واضح، البلدان، مطبعة ليدن، 1860م.

- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1980.

- خوان جوزيف، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، تر: مختار السويفي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1404هـ/1984م، ص: 30

- خوان جوزيف، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، تر: مختار السويفي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1404هـ/1984م.

- الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحد، تح: محمد بن تاويت الطنجي وآخرون، منشورات كلية الآداب، الرباط، دت.

- زبادية عبد القادر، مملكة سنغاي في عهد الاسقيين، الجزائر، 1971م.

- عثمان برايما باري، عثمان برايما بارى، الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1424هـ/2000م.

- عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/1988م.

- فيج جي دي، تاريخ غرب افريقيا، تر: السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1982م.

[1]- كلوديت فاتا كير: نتائج التنقيب عن مدينة أودغست، أعمال المؤتمر التاسع للآثار الإسلامية فى الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1980.

- ماجدة كريمي، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، إشراف: إبراهيم حركات، 1988/1987.

- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد، دار النشر المغربية، 1986م.

- محمد الصغير غانم، المحتوى التاريخي للرسوم الصخرية، مجلة الأصالة (عدد خاص بتاريخ منطقة الهوقار)، الجزائر، العدد 72، 1399هـ/1979م.

- محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، نشأته وآثاره، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، دت.

- محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ

- محمد علي الهمشري واخرون، انتشار الاسلام افريقيا، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418هـ/1997م.

- محمود شاكر، مواطن الشعوب الإسلامية في إفريقيا (السودان)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1401هـ/1981م.

-الجنحاني الحبيب، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1980م.